تحـــت المظـــلة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

تحـــت المظــلة

انعقد السحاب وتكاثف كليل هابط ثم تساقط الرذاذ. اجتاح الطريق هواء بارد مفعما بشذا الرطوبة. حث المارة خطاهم غير نفر تجمعوا تحت مظلة المحطة. وأوشكت الرتابة أن تجمد المنظر لولا أن اندفع رجل. اندفع راكضا كالمجنون من شارع جانبى واختفى فى شارع آخر على الجانب الآخر. تبعه على الأثر جماعة من الرجال والغلمان وهم يتصايحون «لص.. أمسكوا اللص». وما لبثت الضجة أن خفت رويدا حتى ماتت وتتابع الرذاذ. وخلا الطريق أو كاد أما المتجمعون تحت المظلة فبعضهم ينتظرون الباص والبعض لاذ بها خوف البلل. وبعثت ضجة المطاردة مرة أخرى وتدانت فى اشتداد وتضخم ثم ظهر المطاردون وهم يقبضون على اللص ومن حولهم الغلمان تهلل بأصوات رفيعة حادة. وعند عرض الطريق فى المنتصف حاول اللص الإفلات فأمسكوا وانهالوا عليه صفعا ولكما فمن شدة الضرب قاوم وضرب كيفما اتفق. وشدت أعين الواقفين تحت المظلة إلى المعركة.

- يا لها من ضربات قاسية عنيفة!

ـ ستقع جريمة أشد من السرقة!

ـ انظروا . . الشرطى واقف فى مدخل عمارة يتفرج .

ـ بل أدار وجهه إلى الناحية الأخرى . .

واشتد الرذاذ فتواصل أسلاكا فضية برهة انهمر المطر . خلا الطريق إلا من المتعاركين والواقفين تحت المظلة . نال الإعياء من الرجال فكفوا عن تبادل الضربات ولكنهم أحاطوا باللص . وتبادلوا كلمات غير مسموعة معه وهم يلهثون . ثم انغمسوا فى مناقشة هامة لم يميزها أحد دون مبالاة بالمطر . التصقت الملابس بأجسادهم ولكنهم واصلوا النقاش بإصرار وبلا أدنى اكتراث بالمطر . ووشت حركات اللص بحرارة دفاعه ولكن لم يصدقه أحد . ولوح بذراعيه فكأنما يخطب ولكن ضاع صوته فى البعد وانهلال المطر . إنه بلا شك يخطب . وها هم يصغون إليه . تطلعوا إليه خرسا تحت المطر . وظلت أعين الواقفين تحت المظلة مشدودة إليهم .

ـ كيف أن الشرطى لا يتحرك!

ـ لذلك خطرت فكرة . . أن يكون الحدث منظر تصوير سينمائى!

ـ لكن الضرب كان حقيقيا .

ـ والمنافسة والخطابة تحت المطر؟!

شىء طارىء جذب النظر . فمن ناحية الميدان انطلقت سيارتان

فى سرعة جنونية . مطاردة حامية فيما بدا . المقدمة تطير طيرا والأخرى توشك أن تدركها . وإذا بالمتقدمة تفرمل بغتة حتى زحفت فوق أديم الأرض فصدمتها الأخرى صدمة عنيفة مدوية . انقلبتا معا محدثتين انفجارا وسرعان ما اشتعلت فيهما النيران . وارتفع صراخ وأنين تحت المطر المنهمر . ولكن لم يهرع أحد من المحدقين به إلى بقايا السيارتين اللتين أدركهما الخراب على بعد أمتار منهم . لم يبالوا بهما كما لا يبالون بالمطر . ولمح الواقفون تحت المظلة آدميا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من سيارة ملطخا بالدم . حاول النهوض على أربع ولكنه سقط على وجهه سقطة نهائية .

ـ كارثة حقيقية بلا أدنى شك .

ـ الشرطى لا يريد أن يتحرك!

ـ لابد من وجود تليفون قريب .

ولكن أحد لم يبرح مكانه خشية المطر . وقد انهل انهلالا مخيفا وقعقع الرعد . وانتهى اللص من خطابه فوقف ينظر إلى مستمعيه بثقة واطمئنان . وفجأة راح يخلع ملابسه حتى تجرد عاريا . رمى بملابسه فوق حطام السيارتين اللتين أطفأ نيرانهما المطر . دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العارى . تقدم خطوتين وتأخر خطوتين وبدأ يرقص فى رشاقة احترافية . وإذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات إيقاعية على حين تشابكت أذرع الغلمان وراحوا يدورون من حولهم فى دائرة متماسكة . وذهل الواقفون تحت المظلة ولكنهم رغم ذلك استردوا أنفاسهم .

ـ إن لم يكن منظرا تصويريا فهو الجنون!

ـ منظر سينمائى بلا ريب وما الشرطى إلا أحدهم ينتظر دوره.

ـ وحادث السيارتين؟

ـ براعة فنية وسوف نكتشف المخرج فى النهاية وراء إحدى النوافذ.

فتحت نافذة فى عمارة مواجهة للمحطة محدثة صوتا لافتا للنظر. لفتت الأنظار رغم التصفيق وانهمار المطر. ظهر بها رجل كامل الزى فصفر صفيرا متقطعا. وفى الحال فتحت نافذة أخرى فى نفس العمارة فظهرت بها امرأة متأهبة الزينة والملابس فاستجابت لصفيره بإشارة من رأسها. اختفيا معا عن أنظار الواقفين تحت المظلة. وبعد قليل غادرا العمارة معا. سارا متشابكى الذراعين بلا مبالاة تحت المطر. وقفا عند السيارتين المهشمتين. تبادلا كلمة. أخذا يخلعان ملابسهما حتى تعريا تماما تحت المطر. استلقت المرأة على الأرض طارحة رأسها فوق جثة القتيل المنكفىء على وجهه. ركع الرجل إلى جانبها. بدأ غزل رقيق بالأيدى والشفاه. ثم غطاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحب. وتواصل الرقص والتصفيق ودوران الغلمان وانهمار المطر.

ـ فضيحة!

ـ إن لم يكن تصويرا فهو فضيحة وإن يكن حقيقة فهو جنون.

ـ الشرطى يشعل سيجارة.

واستقبل الطريق شبه الخالى حياة جديدة. جاءت من الجنوب قافلة من الجمال. يتقدمها حادى ويقودها رجال ونساء من البدو. عسكرت على مبعدة قصيرة من حلقة اللص الراقص. شدت الجمال إلى أسوار البيوت ونصبت الخيام. وتفرقوا فمنهم من تناول طعامه أو راح يحتسى الشاى أو يدخن وبعضهم غرق فى السمر. ومن الشمال جاءت مجموعة من سيارات السياحة محملة بالخواجات. توقفت فيما وراء حلقة اللص ثم غادرها راكبوها من الرجال والنساء فتفرقوا جماعات تستطلع المكان فى نهم دون مبالاة بالرقص أو الحب أو الموت أو المطر.

ثم أقبل عمال بناء كثيرون تتبعهم لوريات مثقلة بالأحجار والأسمنت وأدوات البناء. وبسرعة مذهلة شيدوا قبرا رائعا، وعلي مقربة منه أقاموا من الأحجار سريرا كبيرا، فغطوه بالملاءات وزينوا قوائمه بالورد، كل ذلك تحت المطر. ومضوا إلى حطام السيارتين فاستخرجوا منه الجثث، مهشمة الرءوس محترقة الأطراف، وضموا إليها جثة المنكفىء على وجهه من تحت العاشقين اللذين لم يكفا عن ممارسة الحب، ثم رصوا الجثث فوق السرير جنبا إلى جنب، وتحولوا إلى العاشقين فحملوهما معا وهما لا ينفصلان فأودعوهما القبر ثم سدوا فوهته وأهالوا عليهما التراب حتى سووها بالأرض. استقلوا بعد ذلك اللوريات فانطلقت بهم فى سرعة عاصفة وهم يهتفون بكلام لم يميزه أحد.

ـ كأننا فى حلم!

ـ حلم مخيف، ويحسن بنا أن نذهب.

ـ بل علينا أن ننتظر .

ـ ماذا ننتظر ؟

ـ النهاية السعيدة؟ !

ـ السعيدة؟ !

ـ وإلا فبشر المنتج بكارثة !

فى أثناء الحديث تربع فوق القبر رجل يرتدى روب القضاء . لم ير أحد من أين أتى . من عند الخواجات أو من عند البدو أو من حلقة الرقص لم يعرف أحد . بسط صحيفة بين يديه وراح يتلو نصا كأنما ينطق بحكم . لم يميز كلامه أحد إذ غطى عليه التصفيق وضوضاء الأصوات بشتى اللغات والمطر . ولكن كلماته غير المسموعة لم تضع فانتشرت فى الطريق حركات كالأمواج الصاخبة فى عنف وتضارب . نشبت معارك فى محيط البدو وأخرى فى مواقع الخواجات . واشتعلت معارك بين بدو وخواجات . وجعل آخرون يرقصون ويغنون . وأقبل كثيرون حول القبر وراحوا يمارسون الحب عرايا . وأخذت النشوة اللص فتفنن فى رقصه وأبدع . واشتد كل شىء وبلغ غايته . القتل والرقص والحب والموت والرعد والمطر .

واندس بين الواقفين رجل ضخم . عارى الرأس يرتدى بنطلونا وبلوفر أسود وبيده منظار مكبر . شق مكانه بينهم بعنف واستهتار . وجعل يراقب الطريق بمنظاره متجولا به بين الأركان . وتمتم :

ـ لا بأس . . لا بأس . .

تعلقت به أعين المتجمعين تحت المظلة باهتمام :

ـ هو ؟

ـ نعم . . هو المخرج .

وعاد الرجل يخاطب الطريق مغمغا :

ـ استمروا بلا خطأ وإلا اضطررنا لإعادة كل شيء من البدء .

عند ذاك سأله أحدهم :

ـ هل سيادتك .

ولكنه قاطعه بإشارة عدائية وحاسمة فازدرد الرجل بقية سؤاله وسكت ولكن آخر استمد من توتر أعصابه شجاعة فسأله :

حضرتك المخرج ؟

لم يلتفت إليه وواصل مراقبته . وإذا برأس آدمى يتدحرج نحو المحطة فيستقر على بعد أذرع منه والدماء تتفجر من مقطع العنق بغزارة صرخ الرجال فزعا أما الرجل فحدق بالرأس مليا ثم غمغم :

ـ برافو . . برافو . .

وصاح به رجل :

ـ ولكنه رأس حقيقى ودم حقيقى .

فوجه الرجل منظاره نحو رجل وامرأة يمارسان الحب ثم هتف نافد الصبر :

ـ غير الوضع . . حذار من الملل .

ولكن الآخر صاح به :

ـ ولكنه رأس حقيقى ، فمن فضلك فهمنا .

وآخر قال :

ـ كلمة واحدة منك تكفى لنعرف من أنت ومن هؤلاء . . .

وثالث قال بتوسل :

ـ لا شىء يمنعك من الكلام !

ورابع تضرع قائلا :

ـ يا أستاذ لا تضن علينا براحة البال .

ولكن الأستاذ تراجع فى قفزة مباغتة . كأنما كان يدارى نفسه خلفهم . ذاب الصلف فى نظرة مترقبة . وتوارت نفخته . كأنما طعن به السن أو تردى فى مرض . رأى المتجمعون تحت المحطة نفرا من الرجال ذوى هيئة رسمية يتجولون غير بعيد من المحطة كأنهم كلاب تشمم . واندفع الرجل راكضا مجنونا تحت المطر . انتبه إليه رجل من المتجولين فاندفع أيضا صوبه يتبعه الآخرون كعاصفة . وسرعان ما اختفوا جميعا عن الأنظار . مخلفين الطريق للقتل والحب والرقص والمطر .

ـ يا ألطاف الله! . . لم يكن المخرج كما توهمنا .

ـ من يكون؟

ـ لعله لص . .

ـ أو مجنون هارب!

ـ أو لعله ومطارديه ضمن المنظر السينمائى .

ـ هذه أحداث حقيقية لا علاقة لها بالتمثيل .

ـ ولكن التمثيل هو الفرض الوحيد الذى يجعلها معقولة على نحو ما .

ـ لا داعى لاختلاق الفروض .

ـ فما تفسيرك لها؟

ـ هى حقيقة بصرف النظر .

ـ كيف أمكن أن تقع؟

ـ هى واقعة .

ـ يجب أن نذهب بأى ثمن .

ـ سندعى للشهادة عند التحقيق .

ـ ثمة أمل باق . .

قال ذلك واتجه ناحية الشرطى وصاح :

ـ يا شاويش . .

كرر النداء أربعا حتى انتبه إليه الرجل . فقطب متنحنحا فأشار إليه يستدعيه قائلا :

ـ من فضلك يا شاويش . .

نظر الشرطى إلى المطر متسخطا ثم حبك المعطف حول جسمه ومضى نحوهم مسرعا حتى وقف تحت المظلة . تفحصهم بقسوة متسائلا :

ـ ما شأنكم ؟

ـ ألم تر ما يحدث فى الطريق ؟

لم يحول عينيه عنهم وقال :

ـ كل من كان فى المحطة استقل سيارته إلا أنتم فما شأنكم ؟

ـ انظر إلى هذا الرأس الآدمى !

ـ أين بطاقاتكم ؟

ومضى يتحقق من شخصياتهم وهو يبتسم ابتسامة ساخرة قاسية ثم سألهم :

ـ ماذا وراء اجتماعكم هنا ؟

تبادلوا نظرات إنكار وقال أحدهم :

ـ لا يعرف أحدنا الآخر !

ـ كذبة لم تعد تجدى .

تراجع خطوتين . . سدد نحوهم البندقية . أطلق النار بسرعة وإحكام . تساقطوا واحدا فى إثر الآخر جثة هامدة . انطرحت أجسادهم تحت المظلة أما الرءوس فتوسدت الطوار تحت المطر .

النـــــوم

هذه النخلة الوحيدة فى الفناء الترب تذكر بحوش قرافة، يجرى ذلك فى خاطره كلما مر عبر الفناء إلى باب البيت الخارجى واعترضه صاحب البيت وهو يرش الأرض بالخرطوم، ناداه قائلا:

- أستاذ.

اللعنة. أبغض يوم عنده يوم يصبح على وجهه. عجوز ناعم، يفتر فوه أحيانا عن ابتسامة كشق فى لحاء شجرة.

- أنت شاب وحيد ولكنك مهذب طيب السمعة، لا شكوى من ناحيتك. فبالله ما معنى الجلسات التى تعقد فى شقتك لتحضير الأرواح؟!

- هل استجوب عما يدور داخل شقتى؟

- نعم، إذا امتد أثره إلى من حولك، ثم إن لى حقا فى مخاطبتك باسم صداقتى القديمة للمرحوم والدك.

انطبع الامتعاض فى صفحة وجهه فقال صاحب البيت :

ـ لم أرك مرة واحدة فى صلاة الجمعة !

ـ وما دخل ذلك فيى موضوعنا؟

ـ المؤمن لا يهتم بهذه الألاعيب ، هذا ما أعنيه !

ضحك الشاب ضحكة قصيرة وقال :

ـ ولكن الاهتمام بذلك يعنى الإيمان بالأرواح .

ـ كلا . يعنى الشك أولا وأخيرا .

فغير الحديث قائلا :

ـ أذكرك بجدار دورة المياه .

ـ لا تتهرب ، الحق أن هذه الجلسات تحدث بين السكان اضطرابا غير مستحب .

ـ أنا لا أرتكب فعلا مخالفا للقانون ، وأرجو أن الجدار .

ـ من الأفضل أن نبقى على وفاق .

ثم قال وهو يدفع بماء الخرطوم إلى بعيد :

ـ أما عن أى إصلاح فعليك أن تقوم به بنفسك .

ما أبغض أن يصبح على وجهه يوم العطلة . والطريق شبه خال كشأنه فى بواكير العطلات . وثمة سقيفة من السحاب الثابت تمتد فوق الضاحية . واشتد عليه ثقل رأسه عقب ليلة لم ينم فيها أكثر

من ساعتين. فبعد انفضاض حلبة التحضير قال لزميلة مدرس التاريخ:

- يطيب الآن الحديث فى المصير.

وتقضى الليل دون أن يجنوا من النقاش ثمرة. وقال له صديق ضاحكا وهو يغادر الشقة قبيل الفجر:

- خير حل أن تتزوج!

وآوى إلى فراشه قلقا ووجه محبوب يتراءى لعينيه. لا ينبغى أن تبقى النخلة وحيدة إلى الأبد. ولم كانت أمه تؤكد له دائما قبيل وفاتها بأيام بأن كل شىء يدعو للحمد؟.. وجد الكازينو خاليا فى تلك الساعة المبكرة. واتخذ مجلسه عند مدخل الحديقة الفاصلة بين الكازينو ومحطة الديزل. حياه الجرسون وجاءه بالجرائد. أعد له مع القهوة سندويتش فول فبعد أن شبع ثقل رأسه أكثر وأكثر حتى عجب أين كان النوم وهو يستجديه فى فراشه. وتذكر درس المفعول المطلق الذى سيلقيه غدا صباحا على تلاميذه فتذكر بالتالى زميله مدرس التاريخ، قرينه فى المناقشات الجنونية.

- ولكن ما معنى ذلك؟

- أنت مدرس عربى، حسن هل عرفت فعلا يا فاعل؟

- اللغة بحر بلا حدود.

- مات محمد، محمد فاعل، ولكن أى فاعل هذا؟!، ولذلك فإنى أبحث عما أريد خارج نطاق اللغة.

وجاء الجرسون لينظف الرخامة فسأله :

ـ كيف تبرر مطالبتك الزبائن بأثمان الطلبات؟

ابتسم الرجل ابتسامة المعتاد لهذه الأسئلة الغريبة، ثم تناول قروشه ومضى. وقال هو لنفسه : «إنه يبتسم ابتسامة العقلاء، ومع ذلك فما لم نعرف كل شيء فستظل معرفتنا الأشياء الصغيرة القريبة ناقصة وغير مبررة». ورنا إلى السحب حتى ابيض كل شيء في عينيه. ولكن البياض لم يثبت على حال، لعبت به يد ساحرة، تميع وتموج، واستحال لونا معتما بلا شخصية ولا شكل. واختفى قطار الديزل الواقف في المحطة أو ذاب في السحاب. ويدافع من رغبته في الهدوء المطلق مثل بين يدي بوذا في الحديقة اليابانية. وسمع صديقه مدرس التاريخ يقول وهو يشير إلى بوذا «الهدوء والحقيقة والانتصار»، ثم أكد قوله مكررا : «الهدوء والحقيقة والهزيمة». وجمع عزيمته على المناقشة ولكن أوراق الشجر اهتزت بصرخة حادة. صرخة طفل أو لعلها صرخة امرأة. وخفق قلبه وانتعش بروح الغزل. وأراد أن يستشهد ببيت من عمر الخيام ولكن هيهات. وناداه صوت. التفت نحو مصدره فرأى صديقه الآخر وقد بادره قائلا : «خير حل أن تتزوج». وأطبق عليه وقع أقدام راكضة. وركض ليلحق بالديزل فزلت قدمه وتهاوى من فوق الطوار. رباه كيف اكتظ المكان بهؤلاء! . . عشرات وعشرات وعشرات يقفون خارج سور الحديقة الصغيرة. وقوة من الشرطة تعسكر فوق طوار المحطة. حدث تحت السحاب الراكد؟ . . وها هو الجرسون راجعا من الزحام إلى الكازينو. وقد مال الرجل نحوه قائلا :

ـ حضرتك رأيت كل شيء طبعا؟

فقطب متسائلا ومنكرا فى آن فواصل الرجل :

ـ سوف تدعى فورا إلى المحقق!

ـ أى محقق يا هذا؟

ـ ارتكبت الجريمة فى المحطة على بعد أمتار من مجلسك .

تساءل مذهلا :

ـ جريمة؟!

ـ أين كنت يا سيدى؟ ، جريمة القتل فظيعة ، ألا تعرف الآنسة «المولدة»؟

ـ المولدة!

ـ قتلها شاب مجنون الله ينتقم منه .

تقلص وجهه فى ألم وذهول ، وغمغم :

ـ قتلت . . لا أصدق . . وأين هى؟

ـ حملوها إلى المستشفى لإسعافها ولكنها ماتت فى الطريق .

ـ ماتت!

ـ ألم ترها وهى تقتل على بعد أمتار منك؟

وبعد صمت عاد يقول :

ـ كيف لم ترها ، أما أنا فكنت مشغولا فى الداخل ثم خرجنا

على صوت الصراخ، كان الملعون يطاردها وهى تجرى أمامه حتى طعنها فى المكان الذى يقف فيه المحقق.

- والقاتل؟

- استطاع الهرب، حتى الآن على الأقل، شباب صغير، رآه ناظر المحطة وهو يثب فوق السور ويستقل دراجة بخارية، ولكن سيقبض عليه عاجلا أو آجلا.

اشتد تقلص وجهه بالألم حتى تقوض فى مجلسه. ومضى الجرسون عنه وهو يقول:

- كيف لم تر الحادثة التى وقعت بين يديك؟!

وأقبل شرطى فدعاه إلى لقاء المحقق. قرر أن يركز فكره المشتت مهما كلفه ذلك من عناء. نظر فى ساعته فأدرك أنه نام ساعة على الأقل. ومضى مع الشرطى وهو يجر رجليه. بدأ السؤال كالعادة بالاسم والسن والعمل.

- متى جلست فى الكازينو؟

- فى السابعة صباحا على وجه التقريب.

- ألم تغادر مجلسك طيلة الوقت؟

- كلا.

- ماذا رأيت، حدثنا بالتفصيل من فضلك؟

- لم أر شيئا!

ـ كيف؟! . . لقد ارتكبت الجريمة فى هذا الموضع ، فكيف لم تر شيئا؟

ـ كنت نائمًا!

ـ نائمًا!

أجاب باستحياء :

ـ نعم .

ـ لم توقظك المطاردة؟

ـ كلا .

ـ ولا الصراخ؟

هز رأسه نفيا وهو يعض على شفتيه .

ـ ولا استغاثتها وهى تناديك باسمك؟

تأوه هاتفا :

ـ اسمى!

ـ أجل لقد نادتك مرارا ورجح الشهود أنها كانت تجرى نحوك مستغيثة بك!

حملق فى وجهه بذهول وتمتم فى توسل :

ـ كلا!

ـ هو الواقع .

أغمض عينيه ولم يعد يلقى بالا إلى المحقق أو أسئلته حتى قال له هذا فى ضجر :

ـ أجب . . عليك أن تجيب .

ـ إنى فى غاية من التعاسة .

ـ أكانت ثمة علاقة بينك وبينها؟

ـ كلا .

ـ ولكنها نادتك باسمك!

ـ نحن من ضاحية واحدة ونقيم فى شارعين متجاورين .

ـ شهد شهود بأنهم كثيرا ما رأوكما تقفان متقاربين فى انتظار الديزل؟

ـ توافق فى المواعيد بحكم العمل ليس إلا .

ـ أليس لاستغاثتها بك دلالة ما؟

ـ لعلها كانت تشعر بإعجابى بها!

ـ إذن كانت هناك علاقة من نوع ما .

ـ ربما .

ثم بانفعال قاهر .

ـ كنت أحبها . . كنت أفكر كثيراً فى طلب يدها .

ـ أو لم تفعل شيئا فى سبيل ذلك؟

ـ كلا . . لم أكن اتخذت قرارا بعد .

ـ ووقعت الواقعة وأنت نائم؟

أطرق فى خزى أليم :

ـ والآخر . . أعنى القاتل . . أليس لديك فكرة عنه؟

ـ كلا .

ـ ألم تسمع عن علاقة لها بآخر؟

ـ كلا .

ـ ألم تر أحدا يحوم حولها؟

ـ كلا .

ـ هل لديك أقوال أخرى؟

ـ كلا .

مازالت السماء محجوبة وراء سقيفة السحاب الجامد . وتساقط رذاذ دقيقة واحدة ثم انقطع . هام على وجهه طويلا .

انقضى النهار وهو يهيم على وجهه . كأنما يداوى أزمته الطاحنة بالحركة المرهقة . وصادفه مدرس التاريخ أمام الحديقة اليابانية . هز يده مصافحا وهو يقول :

ـ تعال نجلس سويا ، بى رغبة فى الحديث .

فقال بفتور :

ـ من غ ير مؤاخذة لا رغبة لى فى الأحاديث الميتافيزيقية .

مط الرجل بوزه آسفا وتساءل :

ـ أحق ما يقولون من أن المولدة قتلت أمامك وأنت نائم؟

فسأله غاضبا :

ـ من أدراك بذلك؟

أجاب بنبرة المعتذر :

ـ سمعت به عند الحلاق!

ـ أمن العجب أن ينعس إنسان متعب؟ . . وما ذنبه إذا قامت القيامة فى أثناء ذلك؟

ضحك الزميل وقال ملاطفا :

ـ لا تغضب ولكنى لم أكن أعلم بالعلاقة بينك وبين المولدة .

ـ أى علاقة! . . أنت مجنون .

ـ أعتذر . . أعتذر . . هذا ما سمعتهم يقولونه فى دكان الحلاق .

مضى فى سبيله الذى لا هدف له . اللعنة، ستنتفخ الشائعات كالمناطيد . ولن ترد قوة الجميلة اليانعة إلى الحياة، حسرة لا دواء لها . واستغاثتها اليائسة ارتطمت بجدار النوم ولكنها نفذت بطرق سحرية إلى آذان الضاحية . أيتها التعيسة إنى أتعس منك . وقال له بائع السجاير وهو يعطيه العلبة :

ـ لا بأس عليك يا أستاذ، البقية فى حياتك .

اللعنة. لا يبدو أن أحدا يجهل الواقعة. وها هم يقدمون له العزاء مسلمين بداهة بعلاقته بها، ها هى الخطبة تعلن بعد الوفاة. وربما تمادت الظنون وراء ذلك.

ورماه البدال بنظرة ذات معنى. ما البدال!.. يخيل إليه أن الأعين كلها تتعقبه. إنه فى الواقع مطارد، متهم، مجرم. إنه مسئول عن الاستغاثة الضائعة لا مفر. وغدا فى المدرسة تنهال عليه الأسئلة. الجحيم الحقيقى ستندلع نيرانه فى حوش المدرسة. تخبط طويلا. تلقى أقوالا كثيرة كلها مثيرة مؤلمة. إنه حديث الضاحية. لا حديث للضاحية إلا الجريمة والنوم «قبض على القاتل وهو تلميذ بالثانوى». إذن قتلها العبث وجنون العيال «كان القاتل يحبها ولكنها لم تشجعه». لذلك بدت له دائمًا رزينة وجادة «من المؤكد أنها كانت تحب مدرس اللغة العربية». يا للحسرة.. شغل عن إسعادها بجلسات تحضير الأرواح ومنعه من إنقاذها النوم «قال فى التحقيق إنه كان نائمًا، أليس عجيبًا ألا يوقظه الصراخ والمطاردة والاستغاثة». إنه لعجيب حقا ولكنهم لا يعلمون أنه قضى الليل فى تحضير الأرواح وأحاديث المصير. اعتصر الألم قلبه فتجرعه سما بطيئا. واضطر أخيرًا إلى الرجوع إلى البيت وهو كاره. كان المساء يغشى حجاب السحاب بغلالة معتمة. وجد صاحب البيت يقتعد أريكة تحت النخلة الوحيدة. استقبله بلطف وقال:

ـ تبدو متعبا، أرجو ألا يكون حديثى معك فى الصباح قد ضايقك؟

هز رأسه نافيا فخفض الرجل صوته وهو يسأله :

ـ أحق ما يقال؟

فقاطعه بحدة :

ـ أجل . . قتلت المولدة على بعد أمتار من مجلسى فى الكازينو وأنا نائم، هذه هى المعجزة الثامنة!

ـ لم أقصد يا بنى أن . .

فقاطعه مرة أخرى :

ـ ولم أسمع استغاثتها، وفى قول آخر أنى سمعته ولكنى تناومت .

أقبل عليه الرجل معتذرا متأسفا، وأخذه من ذراعه فأجلسه إلى جانبه قائلا :

ـ كان المرحوم والدك صديقى، لا تؤاخذنى يا بنى .

ومضت فترة غير قصيرة فى صمت وحذر ثم استأذن فى الانصراف فأوصله الرجل حتى الباب الداخلى . وهناك همس فى أذنه :

ـ أكرر الرجاء فيما قلته لك فى جلسات تحضير الأرواح .

استلقى على الفراش وهو من العناء فى غاية، ثم غمغم مغمض العينين :

ـ ما أحوجنى إلى نوم طويل، طويل بلا نهاية .